

أبو كلثوم الوفدى !

للدكتور زكى مبارك

— — — — —

ما كنت أنتظر أن أجد في « شبرا » ما رأيت هذه الليلة .
فشبرا حتى صخب لا مثيل له في الحركة والضجيج بين أحياء
القاهرة . هو في الأصل من الضواحي الهادئة الوادعة الجملة
الشوارع بأشجار الجوز والتوت ، ثم تحول في مدة قليلة إلى
محلة مزدحمة بالتجار وأرباب الأعمال

كانت سهرة هذا المساء في منزل صديق عزيز يسكن تلك
المحلة ، وكانت السهرة مثقلة بالحديث عن مشروعات وزارة المعارف ،
فلم يكن فيها جانب واحد من جوانب الهدوء والصفاء

ومن عيوب رجال التعليم في مصر أنهم يحملون شواغلهم
في كل مكان ، حتى نحسب أن تلك الشواغل هي كل ما يملكون
من زاد الحديث في مهرات الأندية والبيوت . . . لطف الله بكم
يا زملائي !

وزادني عنف الجدل أن معالي النقراشي باشا كان يتحدث مع
جريدة المقطم في أشياء تفتح المجال للنظر والتأمل ، وتقدم للمستغلين
بالتعليم فرساً كثيرة لحركة الأفكار والمقولات

وأردت أن أخرج قليلاً من ذلك الميدان الذي كنت أركض
فيه وقت الصباح ، ونويت أن أخلص من شواغله وقت الليل ،
فاقترحت أن تفضل « روحية » فنقرأ علينا حديث النقراشي باشا
بصوتها الذي يشبه بُنّام الطباء ، وأنا أرجو أن أحوّل تلك
المضلات التعليمية إلى مشكلات وجدانية

ولكن روحية تلحن حين تقرأ ، واللحن من مثلها لا يفتقر :
لأنها طالبة بإحدى كليات الجامعة المصرية ، ومن البعيد أن أطرب
لكلامها اللحن ، فقد كانت المقام مقام تعليم ، ولم يكن مقام
تشبيب ، وإن كنت قصدت أن يُفيض صوتها على ذلك الموضوع
الجانب نفحة من نفحات الوجدان

فهل غيرتني الأيام حتى صرت أعدّ اللحن من ذنوب الملاح ؟!
معذرة ، ياروحية ، فإن عمك نقله الزمان من حال إلى أحوال !

خرجت مكروب الصدر أفكر في أشياء وأشياء ، ولكن
القمر طالعني بوجه أصبح وحاج ، فنظرت إليه برفق وحنان ،
وكدت أنسى ما في الصدر من هموم وأتقال . . . والشعراء كالأطفال
ينسون أشجانهم الفواحش في لحظات !

قال رفيق : أين تقع هذه الليلة من الشهر ؟
فنظرت في المقطم على نور القمر فرأيتنا في مساء اليوم الثالث
عشر من شوال ، فقلت : هذه ليلة البدر ، يا رفيق !
وما هي إلا لحظة حتى كان المذياع يصافح آذاننا بجملته من
منزل بميد فهرت إليه وأنا مأخوذ ، فجذبني الرفيق من يدي
وهو يقول : إن لم يكن بد من السماع فارجع بنا نسمع المذياع
في البيت !

فقلت : أريد أن أسمع مع قوم لا يعرفون وزارة المعارف ،
ولا يفكرون في المناهج ، ولا تهمهم مصائر التلاميذ !

وقفت أسمع كما وقف ابن عبدربه يسمع منذاً أكثر من تسعة
قرون ، ولم أخف مما وقع لابن عبدربه ؛ فقد طردوه بأسلوب
قبيح حين رموه بحجرة من الماء ليحرموا أذنيه ألحان الفناء !
ثم نظرت فرأيت الدنيا حولي تذكر بحلة الصدرية في بغداد .

هي والله محلة الصدرية بمنازلها المنثورة بلا نظام ولا ترتيب ، وفي
تناياها مخلات طوال تخيلتها نقلت من هناك

قال رفيق : إن المذياع في بيت ليس فيه ضياء
فقلت : إنه يغشّي أهل البيت في لحظة صفاء
فقال : ألا يكون من الأدب أن تنصرف !

فقلت : ومن الخير أن أرجع إلى داري لأكتب كلمة عن
أبي كلثوم الوفدى ، فقد تذكرته حين رأيت في شبرا صورة الصدرية
في وطن الأهل والأحباب ، إن بقي لي في الدنيا أهل وأحباب !

فن هو أبو كلثوم الوفدى ؟
هو أبو كلثوم : لأنه مفتون كل الفتون بأغاريد أم كلثوم ،
وهو يهذي بها في كل وقت
وهو وفدى : لأنه حقاً وصدقاً من أشياع الوفد المصري ،
وهو يهفو إليه في كل حين

فن هو أبو كلثوم الوفدى الموزع القلب بين القاهرة وبغداد ؟
هو الأخ العزيز الأستاذ محمد باقر الشيباني أحد الشعراء المجيدين
في العراق

ولم يكتف « وفدى الهوى » بهذه الزفرة ، بل انتقل إلى انشقاق الوفد وهو يصرخ :

عجينا أم كلثوم من الحادثة الكبرى
لماذا انقسم الوفد ؟ ومن ذا يئس الأمرا ؟
ألا من يجمع الشمل ؟ ألا من يطرد الشر ؟
خذى حذرک يا مصر وددى الكيد والمكر
وتوجع الشاعر لما صار إليه سمادة الأستاذ محمد نجيب
النزالي باشا فقال :

رأيت الخصم جذلان بما جد من الخلف
أحقاً فصل الوفد « نجيباً » وهو في الصف
فهذا الحادث البكر أروانا موطن الضعف
إلى الوحدة يا مصر إلى الإشفاق والمظفر

نظمت تلك القصيدة في مثل هذه الأيام من سنة ١٩٣٢
فهل كانت آخر زفرة من زفرات الأستاذ باقر الشببي في التشوق
إلى أم كلثوم وإلى الوفد المصرى ؟
إليك هذا الخبر الطريف :

في بواكير الربيع من سنة ١٩٣٨ اجتمع نادى القلم المراق
بمنزل سمادة الدكتور فاضل الجالى ، وكانت الجلسة برئاسة معالى
الأستاذ محمد رضا الشببي ، وكانت الكلمة يومئذ للأستاذ
عبد المسيح وزير ، فما الذى قال ؟ أخذ يقرأ قصة من قصصه ،
فاشتركت مع الأستاذ عباس المزراوى فى السخرية من خياله الجليل !
وعند نهاية القصة طلبت الكلمة لأحاسب « القارىء » ،
ولكن معالى الأستاذ محمد رضا الشببي خشي عافية الهجوم على
الأستاذ عبد المسيح فاقترح ترك التعقيب ، ثم قال إن عنده
موعداً وانصرف

واستؤنفت الجلسة برئاسة الدكتور الجالى فقلت : إن معالى
الرئيس أغلق باب التعقيب لأنه مشغول ، وهو قد انصرف ،
فأما أطلب الكلمة من جديد ، ثم قلت : إن الغرض هو إلقاء
محاضرة ، لا قراءة قصة ، فكيف جاز للأستاذ عبد المسيح وزير
أن يحبسنا ساعة لشهد طريقته فى التلاوة ؟ فقال الدكتور عرقاوى :
الأصل أن يلقى الموضوع محاضرة ، ولكن ما الذى يمنع من أن يقرأ
شيئاً من آثاره الأدبية ؟ إن الأدب هو الأصل والتعليق عليه هو
الفرع ، فالقصة كالقصيدة لون من الأدب .

وما كان باقر الشببي أول من فطن بأغريد أم كلثوم ، فقد
فطن بها الزهاوى والرسافى والبناء ، ولهم فى الهيام بأغانيها قصائد
جياذ ، وربما جاز القول بأن أم كلثوم شغلت جميع شعراء المراق ،
فن النادر أن تمر أغانيها هناك بلا تشوق . وقد زاد الاهتمام
بأم كلثوم عند أهل المراق بعد أن عرفوا أن حنجرتها مسروقة
من الحمامة الموصلية التى تقم بإحدى نوافذ المنارة الحدباء

لم يكن باقر الشببي أول المفتونين بأغريد أم كلثوم ، ولكن
هيامه بها قد اتصل بزرعة نبيلة هى الجزع من الانشقاق الذى
وقع فى الوفد سنة ١٩٣٢ وخرج به على الزعامة ثمانية أعضاء
فى تلك الأيام ذهبت أم كلثوم لزيارة بغداد فاستقبلها الشاعر
بخفقة من القلب والروح وهو يهتف :

على الشاطىء سيداح هنيئاً لك يادجمله
سأرعى النجم للصبح وأحبي الليل فى الحفلة
فأهلاً ظبية النيل ومرحى جارة الرملة
وبوركت على السير وهنئت على الرحلة

هنيئاً لك بغداد فهذى أم كلثوم
من الغيد الأعراب أتتنا ، لا من الروم
لقد أحبت لياليك بنفسريد وترنيم
فمنراً فرحة النفس إذا قصر تكريمى

أعبدى السجع والصدق وغنينا إلى الفجر
فهذى الأنجم الزهر مطلات مع البدر
ففتى أروع الشعر وصوغيه من السحر
فن تحرك للثغر ومن تفرك للنحر

أرطلى بنت فرعون على السرح والملمب
ورققاً ربة النسوت بأحشائى أن تهيب
فأنت الكاعب الرود لما الظبي وما الررب
خذى روحى إلى مصر فصر الوطن الأقرب

ثم ثور الزرعة الوفدية فى صدر الشاعر فيصيح :

سلى قلبى عن الحب فقد ذاب من الوجد
فكم لآب على الروض وكم حام على الورد
سلىنى صاحب اللون فن سهدنى إلى مهد
خذى قلبى للوفد فأتى فى الهوى وفدى

انضمامك إلى الوفد ا فضحك ضحكة كادت تزله من مكانه ،
ثم مضى يقول :

وذكرني عهد الصبا في نشيده سلام على عهد الصبا في ربنا نجد
هواه على أجران دجلة واقده وأما هوى قلبي فلننيل و«الوفد»
فصاح الأعضاء : صحت قراصة الدكتور مبارك في «الوفد»
فهل تصح في «أم كلثوم» ؟ فغنى الشاعر في النشيد :

فلا تحسبوه شارد اللب وحده
ولا تحسبوني سادراً في الهوى وحدي
صريع الغواني ، لا تلمني فإني صريع أغاني أم كلثوم لا دعد
سلام على تلك الأغاريد لها أغاريد من وحي الصبا والوجد

أما بعد فهذا حديث أبي كلثوم الوفدي ، أعزّه الحب ورضيت
عنه المروبة المصرية والعراقية ، فإن كنت فضحت هواه فلا يلني
«فاني في الهوى وفدي» وربما صرحت ققلت إني شيوعي
في الحب : فلي صبايات تغرب فتصل إلى باريس ولواحق باريس ،
وتشرق فتصل إلى بغداد ولواحق بغداد من حواضر العراق ،
وهل تركتني دمشق وبيروت بلا عقايل ؟

إن حالي لمجيب ما يرى أعجب منه
كل أرض لي فيها غائب أسأل عنه

زكي مبارك

ديوان الصيّدح بالجمان

إذا كنت أديباً قابضت باسمك وعنوانك إلى :

« فليل ميريس فليل رئيس الجامعة الأردنية بالنبيا »

يصلك الديوان مجلداً تجليداً فاخراً ، مع الحكم في قضية
القلب المسكين للرافعي ، ولن نطالبك بالثمن إلا بعد الاطلاع عليه
أرفق بالطلب ٢٧ سبائك طابع البريد ، وللخارج الضيف



وقال الدكتور الجمالي : فليكن هذا تقليداً جديداً من تقاليد
نادي القلم العراقي ، ومن حق الشراء من أعضاء نادي القلم أن
ينشدوا بعض قصائدهم في الجلسة المقبلة ، وستكون فرصة تسمع فيها
سوت الدكتور زكي مبارك ، فقد سمعت أنه شاعر ، وله ديوان
فقال الدكتور عقراوي : ولا يشترط أن يكون الشعر جديداً ،
فالدكتور مبارك شاعر مُقلّ ، وعليه واجبات في دار المعلنين
العالية قد تمرقه عن نظم قصيد جديد

وبهذه المحاورة نجا الأستاذ عبد المسيح من لسان ، وما كاد
ينجو ، مع أنه أبو إيناس

أما شاعرٌ مُقلّ ؟

هذا صحيح ، ولكن كيف ألقى نادي القلم العراقي بقصيد نظمته
منذ سنين ؟ وكيف أضيع الفرصة فلا أقرع أسماع بغداد بقصيد
جديد ؟ ومضيت وأنا أحاور شيطاناً فنظمت قصيداً (في أحد عشر
ومئة بيت) عنوانه :

« من جحيم الظلم في القاهرة إلى سفير الوجد في بغداد »

وأُنشدته في الأسبوع التالي بالرسمية . فقال معالي الأستاذ
محمد رضا الشيبني : كيف استجزت يادكتور قتل هذه الشاعرية ؟
فقلت : قتلها التأليف ، وهو يشغل الفكر عن الغناء

وصاح الأستاذ رفائيل بطي : أين الشاعر الذي يجيب
الدكتور مبارك ؟

فقال الدكتور الجمالي : سيجيبه الأستاذ باقر الشيبني حين
يُجتمع في منزله بالزوية في الأسبوع المقبل ، إن شامت الشياطين
واجتمعنا بالزوية في مساء مقتول النسيم ودجلة تصنع إلينا
في تودد وترفق ، والإخوان ينتظرون قصيدة السيد باقر الشيبني ،
فهتف البلبل :

وفاء بعهدي أو نزولاً على وعدي وقفت أحسي معشري وبني ودي
وقفت أحسي عصبية عربية بهانستين الرشد حقاً ونستهدي
فأهلاً بكم في روضة الحب والصفاء وأهلاً بكم عند السرّة أو عندي
وهيجني في الرسمية شاعرٌ به مثل ما بي من أنين ومن سُهد
به من هوى ليلي رسيس من الهوى

وبني لمب لا ينطق من هوى هند
وما كاد يصل إلى هذا الحد حتى حدثني للقلب بأنه سيتحدث
عن أم كلثوم والوفد لأن القافية دالية ، فقلت : أراهن أنك ستعلن